محور العدد:

نساء عربيات رائدات

الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان

فدوى طوقان شاعرة العرب

بقلم: الأستاذة الدكتورة لينا علي زيتون
أستاذة في اللغة العربية وآدابها، اختصاص نقد روائي في الجامعة اللبنانية
Lina.zeitoun12@yahoo.com

شاعرة فلسطين، وأم الشعر الفلسطيني، وأم تمام، ودنانير، والمطوقة، ابنة مدينة نابلس ملكة فلسطين غير المتوّجة، عنيت بها الشاعرة والأديبة فدوى طوقان.

من هي فدوى طوقان؟

امرأة لقّبت بهذه الألقاب هو علامة شديدة الدلالة على ثقافة هذه المرأة التي حملت على عاتقها القضايا الكبرى التي حدثت في فلسطين. والقضية الفلسطينية هي قضية شعب كتبت عنها طوقان ألمها ورفضها للظلم الّلاحق بشعبها وكتبت رؤيتها المتولّدة عن ثقافة وتبصّر.

وامرأة لقبت بهذه الألقاب في عالم الشعريّة تعني ما تعنيه، تعني أنها شاعرة كبيرة لا بل من أكبر شعراء عصرها، ولا يكون الشاعر كبيرا إذا لم يكن مثقفا كبيرا، الشاعر الكبير هو مثقّف كبير بكلّ تأكيد.

إن أوّل ما يجب تسليط الضوء عليه في دواوين طوقان، هوعلاقتها بالمتلقي ونجاح هذه العلاقة هو المؤشر الأساسي لنجاح قصيدتها، ولا يمكن لشاعر مهمه علا شأنه أن يكتب قصيدة من دون حضور المتلقي الذي يتناسب مستواه الثقافي مع تلك القصيدة.

فقصيدة فدوى طوقان تنتمي إلى الأدب الملتزم الذي يقوم على تحريض المظلوم وعلى التشهير بالظالم، وهذا ما قامت به الشاعرة، فإنها لا تستسيغ أية قصيدة لا تحمل القضايا الكبرى من تحرير فلسطين إلى العدالة الاجتماعيّة.

مثّل شعرها أساسا قويا للتجارب الأنثويّة في الحب والثورة واحتجاج المرأة على المجتمع.

استطاعت طوقان أن تقرأ من الواقع ما لا يقرأ كما استطاعت أن تصوغ أسئلة برؤية عميقة رابطة الإنسان الفلسطيني بالمواقف الكبرى، فهي مثقفة كبيرة استطاعت أن تمتلك ثقافة عصرها، وهي لم تمتلكها وحسب ولكنها استطاعت أن تطرح عليها من الأسئلة ما يحرجها وما تعجز عن الإجابة عنها.

فنتاج فدوى طوقان في الشعر المقاوم، هو الصوت الذي يعبّر عما يحتقن في وجداننا هذه الأيام وما أشبه اليوم بالبارحة.

قدمت فدوى طوقان سبع مجموعات شعرية هي:«وحدي مع الأيام»، «وجدتها»، «أعطنا حبّا»، «أمام الباب المغلق»، «الليل والفرسان»، «على قمّة الدنيا وحيدا»، «تموز والشيء الآخر»، كما قدّمت سيرة ذاتيّة بجزأين «رحلة صعبة» و»ورحلة جبليّة» ثمّ «الرحلة الأصعب».

كانت فدوى طوقان رمزا للمرأة الناجحة ومثّل شعرها الذي بلغ 1220 قصيدة أساسا قويا لتجاربها الشعرية.

ومر شعرها بمراحل عدّة من الشعر الرومانسي إلى الشعر الحر ثمّ إلى الشعر المختص بأدب المقاومة بعد سقوط فلسطين في أيدي العدو الإسرائيلي الغاشم.

سأحاول أن أسلط الضوء على بعض أشعار فدوى طوقان المختصة بأدب المقاومة لأنه من العناصر الأساسيّة عندها، وكانت ملامحها المقاومة لا تكتمل ولا يكتمل وجهها الشعري بدونها.

من الواضح أن الرفض السياسي كان جليا في شعرها السياسي المقاوم، هو الرفض لكل الأحداث التي تمس الوطن. وقد ظهر في شعرها الحديث عن مأساة الشعب الفلسطيني.

فمعظم القصائد التي نظمتها طوقان تحمل الكثير من الإشارة الداعية لرفض الطغيان والعدوان. هذا بالإضافة إلى دفاعها عن الأنثى الفلسطينيّة، ومن الأمثلة على هذا النوع من الرفض ما قالته في قصيدة «أمام شباك التصاريح».

فتقول:

حنظلا صرت، مذاقي قاتلٌ
حقدي رهيبٌ موغلٌ حتّى القرار
صخرة قلبي وكبريت وفوارة نار
ألف (هند) تحت جلدي
جوع حقدي
فاغرٌ فاه، سوى أكبادهم لا
يشبع الجوع الذي استوطن جلدي.

وفي قصيدة «أقلام مبعثرة» التي تقول فيها:

حريتي! حريتي! حريتي!
صوت أردده بملء فم الغضب
تحت الرصاص وفي اللهب
وأظلّ رغم القيد أعدو خلفها
وأظلّ رغم الليل أقفو خطوها
وأظلّ محمولا على قيد الغضب
وأنا أناضل داعيا حريّتي.

استخدمت فدوى طوقان المفردات المستخدمة في الحياة اليوميّة لتكون ألفاظ قصائدها مبنيّة على لغة قريبة من لغة الشعب، ولتكون مشتركة مع جميع الشعراء الفلسطينيين، وأهم ما يلفت النظر في هذه القصيدة القلق النفسي والضياع من خلال تكرارها لكلمة حريّتي وهذا ما يعاني منه الفلسطينيون وخاصة جيل الشاعرة المؤمن بالحريّة وبواجب التحرير.

تقول في قصيدة «على قمة الدنيا وحيدا»:

حينما الليل الذي أغمض عين الشمس
أمسى في خطر
حينما مستنقع الأكذوبة النكراء أمسى
في خطر
حينما الوجه الذي
قنّعت تشويهه الأصباغ أمسى في
خطر

ولئن كانت هذه القصيدة وجدانيّة بقدر ما هي ملتزمة فقد استطاعت أن تسلط الضوء حول قضيّة الأمة الكبرى تستعرض الشاعرة المعاناة التي قاسها الشعب الفلسطيني من ظلم واضطهاد، فأتت هذه القصيدة صرخة في هذا الفضاء العربي الموبوء، صرخة ما زالت مدوّية، صرخة مقاومة.

وقالت في قصيدة «تموز والشيء الآخر»:

على جسد الأرض راحت أنامله الخضر تنقل خطواتها...
على جسد الأرض راحت تمرّ أنامله الغضّة السندسيّة...
وصارت خطوط يديه جداول...
عشقناه تموز ينفض تل الرماد ويمنح ليلاتنا
شمسه الذهبيّة...
لماذا يفتح في ظهر تموز جرح يلمع ويلمع حنجرا؟

فالاستفاهم الإنكاري في هذه القصيدة لا يستدعي إجابة لكنه يطرح مسألة دقيقة عبر ذكر الرمز تموز وهو المنتصر على الموت وهو رمز للقيامة واستئناف الحياة .

وما قدمته أيضا طوقان في هذه القصيدة كان بمنزلة سخرية مفعمة بالاحتقان والقهر الذي يضمر رسائل حزينة يتآكلها القهر متعديّة إلى تموز قاهر الموت من جهة وإلى الإنسان العربي الحزين والمحبط من جهة أخرى.

ويبقى أننا أمام شاعرة حمالة همّ ملتزمة حملت دائما وأبدا بذور التحدي في عالم كانت السيطرة فيه لعدوّ أقوى منها، فلم تتوان أو تتوقف يوما عن بثّ شعر المقاومة والحب والانتماء إلى فلسطين في ظل كلّ محاولات تهويد الأرض الفلسطينيّة وفي وجه كلّ محاولات الاحتلال الغاشم بتكريس الروح الإنهزاميّة واليأس في نفوس الفلسطينيين خاصة والعرب عامة.